

الفصل الثالث عشر



بعد تلك الشهور الطويلة كلها، كنت أمل أن يكون محصول والدي كافياً لتسديد رسومي المدرسية؛ كي أعود إلى المدرسة. لكنّ الديون التي تراكمت علينا من جرّاء المجاعة كانت كبيرة. ومع اقتراب موعد بدء الدراسة في مدرسة كاتشوكولو، لم يكن لدينا أيّ مال، ولا حتى لشراء بذور التبغ والسماذ. لم يكن لدينا شيء نبيعه إذا لم نزرع التبغ، ما يعني أننا سنُفلس فيما تبقى من السنة. وفي واقع الأمر، فإنّ سنوات عدّة ستمر قبل أن نتمكّن من زراعة التبغ مجدّداً، وهو ما دفعنا إلى زراعة محاصيل يمكنها الاستغناء عن السماذ، مع بيعها في السوق بسهولة، مثل: فول الصويا، والجوز، والفول. لكن، وعلى الرغم من رواج بيع مثل هذه المحاصيل الإضافية، فإن أسعارها لم تكن مرتفعة بما يكفي لجني مال وفير؛ مال يكفي لعودتي إلى المدرسة بطبيعة الحال.

كنت ووالدي نستمع إلى المذياع في ظهيرة أحد الأيام، عند العمل في الحقول، حين قرأ المذيع إعلاناً يروّج لمدرسة محلية خاصة، وهذا نصّه: «تعالوا إلى مدرسة كابهوكا الخاصة، لدينا مدرّسون أكفاء، ونتائج باهرة في الامتحانات، ونظام تقسيط ميسر. لا تدعوا الوقت يفوتكم! تعالوا إلى كابهوكا!».

كثيراً ما كانت تلك المدارس تبيّ إعلاناتها عبر المذياع، الأمر الذي كان يثير الحزن في نفسي بعدما آل بي الحال إلى الجلوس في البيت من غير فائدة. لكن، هذه المرّة، وجدت في ذلك الإعلان فرصة لأطرح السؤال الآتي، على الرغم من أنّني أعرف الإجابة مسبقاً:

ما رأيك يا أبت؟ ما رأيك في هذه المدرسة؟ ماذا بالنسبة إلى دراستي؟

فأجاب: حسناً، ما زلنا ننظر في الموضوع. أمل أن تتمكن من إرجاعك إلى المدرسة عندما نسدد ديوننا.

أنا متأكد أنّ تلك الأسئلة كانت تُدمي قلب والدي. لذا، كنت أتجنّب الخوض في نقاش، فأقبل إجابته مُواصلًا العمل.

في شهر كانون الثاني ذاك، شاهدت أصدقائي كافة يعودون إلى المدرسة، كانوا يروون النكات، ويضحكون في الطريق المؤدي إلى كاتشوكولو. وكنت حين أقابل غيلبرت والآخرين في السوق التجاري للعب الباوو، ويقول لي أحدهم شيئاً من قبيل: إذن، متى سنراك في المدرسة مجدداً يا ويليام؟، أو يتفاخر بعلاماته الجيدة في الامتحانات؛ كنت لا أرد، أو أقول: أفضل عدم التحدث في هذا الموضوع رجاء. فيتوقف الجميع عن ذكر الموضوع مدة من الزمن.

كنت كلما ذهبت إلى السوق التجاري شاهدت كثيراً من الأولاد الذين تركوا المدرسة وهاموا على وجوههم. فبدلاً من أن يشغلوا أنفسهم بالزراعة، أو محاولة العودة إلى المدرسة، أخذوا يتسكعون أمام متجر تشيبكيكو بملابسهم الرثة المتسخة، ويعملون بالغانيو طوال النهار لينفقوا ما جنوه في الشرب عند حلول الليل. وقد أصبح معظمهم مجرد أشباح تتزاحم عند باب مركز أوفيسي للخمور، ويُخيل للرائي أنّهم أموات يتراقصون كالأحياء، بعد خروجهم مترنحين من أوكار كاتشاسو.

لدينا مقولة في مالوي تصف هؤلاء الأشخاص باللامبالاة. فهم يعيشون حياتهم كما اتفق؛ يعتاشون على الغانيو، ولا يخططون للمستقبل. وفي واقع الأمر، فقد بدأت أقلق أن ينتهي بي المطاف على تلك الحال، وأن يفقد مشروع الطاحونة الهوائية بريقه يوماً ما، بحيث يتعذر المحافظة عليه، وأن تذهب طموحاتي كلها في مهبّ الريح، لينتهي بي المطاف بين صفوف الذرة. حقاً، لقد أصبح من السهل علينا نسيان الأحلام.

حاربت تلك الأفكار السوداوية بالتردد على المكتبة كل أسبوع، مع أنني كنت غير موقن بعودتي إلى المدرسة. كنت أواظب على الذهاب؛ لأثري معلوماتي العامة، وأحافظ على

إلهامي. لذا، عمدت إلى قراءة الروايات الموجودة في المكتبة جميعها - يتحدث معظمها عن فيروس نقص المناعة المكتسبة، ومرض الإيدز -، إضافة إلى كتب الإملاء؛ لكي أحسن من لغتي الإنجليزية الركيكة. وقد واظبت على استعارة كتب: شرح الفيزياء، واستخدام الطاقة، والعلوم الموحدة. وأصابني الفضول حديثاً حيال مضخات المياه تحديداً، إلى جانب أنظمة التبريد، وطرائق صناعة الوقود البديل.

وعودة على ذي بدء، فقد أصابت الطاحونة الهوائية نجاحاً كبيراً، لدرجة أنني شعرت بقليل من الضغط؛ إذ بدأت أرى نفسي نجماً مشهوراً، نال حظاً وافراً من موسيقا الريفا، وتمكّن من إصدار ألبوم حقّق شهرة واسعة في الآفاق. ومع ذلك، فقد شعرت أنّ عليّ تحقيق نجاح من نوع آخر. فبدأت أنكبّ على نصوص كتب المكتبة كلّ يوم، محاولاً استلهام فكرة بديعة أخرى. فقد كان المعجبون في الانتظار، أو هذا - في الأقل - ما كنت أمله.

وفي واقع الأمر، فقد اقترح كثيرون - ممّن جاؤوا لرؤية الطاحونة - أشياء مشابهة، من مثل: تبدو كبرج إرسال، و« ما دمت قادراً على صنع هذه الرياح الكهربائية، فبإمكانك صنع برج إرسال. إنها تبدو مثله على أيّ حال.

لقد جعلني ذلك الأمر فضولياً، وحفزني إلى تعرّف كيفية عمل برج الإرسال. وبعد التفكير في الأمر مدّة من الزمن، لمعت في ذهني فكرة، فذهبت بها إلى بيت جيفري.

قلت: اعتاد كثير من الناس القول أن الطاحونة تبدو كبرج إرسال، فلنمنحهم ما يريدون إذن.

قال: ماذا تقصد؟

أجبت: لنين محطة بتّ إذاعي.

في ظهيرة ذلك اليوم، أخرجنا أجهزة المذياع المعطّلة من كيس القطن، وكان بعضها لا يحوي غطاءً خارجياً. أردت أولاً اختبار النظرية. وحدث أن ضربت عاصفة رعدية كبيرة المكان ليلاً قبل ذلك بأسابيع عدّة، فدخلت غرفتي حاملاً المذياع. كنت أستمع إلى برنامج

يوم الأحد لأفضل عشرين أغنية حين انفجر البرق مضيئاً السماء. عندما حدث ذلك، سمعت نبضة سَرت في البرنامج، كأنَّ البرق قَسَم الإشارة.

أخذت مدياعاً آخر ووجَّهته إلى موجة مشوَّشة (فارغة)، ووجَّهت الأول إلى الموجة نفسها. عندئذٍ، توقَّف المدياع الأول عن إصدار أيِّ صوت؛ لا ضجيج، أو أيِّ شيء آخر.

قد تكون موجة أحد الجهازين قد اخترقت الأخرى بفعل البرق. ولكن، إذا كان ذلك صحيحاً، فمن المؤكَّد أنه يمكنني وضع صوتي على تلك الموجة.

كان أحدُ الجهازين اللذين استخدمتهما مشغَّل شرائط شخصياً (ووكمان)، وقد ضمَّ مدياعاً أيضاً. أبقيت الجهاز الآخر موجَّهاً على الموجة التي تحوي ضجيجاً، وقصرت عمل نظام الووكمان على مشغَّل الشرائط. وقد لاحظت حينها أنَّ هنالك أسلاكاً تصل مشغَّل الشرائط بالسَّماعات، فقامت بفكِّها عن هذه الأخيرة، ثمَّ وصلتها بمكثِّف الجهاز. ولما كان المكثِّف يتحكَّم في الموجة، فقد يعني ذلك أنَّ الموسيقى الصادرة عن المشغَّل باتجاه السَّماعات قد تُحمَل على موجة باتجاه المدياع الآخر. عندئذٍ، وضعت شريط فرقة بلاك ميشيناريز في المشغَّل، قائلاً: ها نحن أولاء.

ضغطت على زرِّ التشغيل، ويا للهول! فقد صدحت الموسيقى بوضوح من المدياع الآخر. وبذا، أصبح (الووكمان) يمثِّل محطة البثِّ المخصصة بي، ما يعني أنني إذا حصلت على خمسة أجهزة مدياع موجَّهة على الموجة نفسها، فجميعها ستبثُّ شريط فرقة بلاك ميشيناريز.

قلت: حسناً يا سيد جيفري، كيف لي أن أفعل ذلك لصوتي؟

وما هي إلا لحظات حتى فككت الأسلاك عن المكثِّف، ثمَّ وصلتها بسَماعة أذن منفصلة، ليصبح لديّ لاقط صوت (ميكروفون). بعد ذلك، ضغطت على زرِّ التشغيل مجدداً، وأخذت أتحدث عن طريق اللاقط، قائلاً: واحد اثنان، واحد اثنان. وفي هذه الأثناء، سمعت صوتي يصدر من الجهاز الآخر: مساؤك سعيد يا مالوي. هذا محدثكم ويليام كامكوامبا برفقة مساعده الأمين السيد جيفري. اسمحوا لنا بقطع برنامجكم المعتاد.

بدأت أنا وجيفري بعد ذلك بتجربة محطتنا الإذاعية الصغيرة؛ إذ مشى جيفري إلى الخارج حاملاً المذياع، في حين بقيت أنا في غرفتي أغني أغاني بيلي كاوندا المفضلة لديه. وقد استطاع جيفري سماع صوتي بوضوح حتى في الخارج. لقد كنت أعمل بجدّ حقاً.

وفجأة، صرخ جيفري عليّ قائلاً: أذناي تدميان. ولكن، تابع أرجوك! هذا رائع!

وقد لاحظت أنه كلما ابتعد عن غرفتي، أصبحت الإشارة أضعف، حتى اختفت بعد أن أصبح على بُعد ثلاث مئة قدم، الأمر الذي كان جيداً بالنسبة إلى جيفري، على ما أعتقد؛ نظراً إلى صوتي النشاز.

قلت: لو أنّ لدينا مضخماً (للصوت) لتمكّننا من البث مسافات أبعد.

لكنّ جيفري كان يخشى أن تعتقلنا السلطات بسبب العبث بموجاتها. فقد سبق أن قال كثير من الناس مثل تلك التفاهات بخصوص الطاحونة الهوائية أيضاً: عليك أن تحذر، وإلاّ اعتقلتك شركة توليد الطاقة الوطنية.

لو أنّ أسلافنا خافوا من الاعتقال لدى إجرائهم تجارب أفضت إلى اختراعات عظيمة، مثل: المذياع، والمولّدات، والطائرات، لما تمكّننا من التمتع بها في يومنا هذا.

لذا، كنت أردّد دائماً: فليأتوا لاعتقالي، سيكون ذلك شرفاً لي.

وسرعان ما أصبحت أحاول تجربة كلّ فكرة تخطر على بالي. وبذا، لم تخل لحظة في العام اللاحق من تخطيط واستنباط خطة جديدة. ومع أنّ الطاحونة الهوائية والمذياع أصابا نجاحاً باهراً، فإن مصير بعض التجارب الأخرى كان خلاف ذلك.

كان أكثر مشروع تحمّست لعمله هو مضخة المياه؛ الذي كان جزءاً من فكري الرئيسي مُدّ رأيت الطاحونة الهوائية في الكتاب. ومع أنّ المضخة التي تعمل بطاقة الطاحونة الهوائية ستأتي في وقت لاحق، فإنني بدأت أعمل على نموذج مضخة لتجربة مبدأ عملها لا أكثر. لقد صنعتها وفقاً لصورة من كتاب شرح الفيزياء، تمثل مضخة دافعة تستخدم مكبساً، ومجموعة من الصمامات؛ لدفع المياه عبر مخرج. وقد ضرب الكتاب أمثلة على ذلك، مثل بخاخات المياه المخصوصة بزجاج السيارات الأمامي، وهي شيء لم أستخدمه من قبل، إضافة إلى مضخة يدوية تُستخدم في الدرّاجات الهوائية، وهي شيء كنت أعرفه جيداً.

كان في بيتنا بئر ضحلة نستخرج منها المياه لأغراض التنظيف والاستحمام، وقد بلغ عمقها أربعين قدماً. لذا، كنت أولاً بحاجة إلى أنبوب طويل يصل إلى القعر. فتذكّرت أنني رأيت مرةً أنابيب في ساحة الخردة كانت تُستخدم قبلاً في الريّ، وكانت لا تزال مدفونة تحت الأرض. لذا، تناولت معولي، وخرجت ذا صباح لأحضر وأستخرجها، وهو ما استغرق مني يومين كاملين.

كانت الأنابيب مناسبة تماماً؛ فالأول كان لدائياً (بلاستيكياً) عريضاً يمكنني استخدامه ماسورةً خارجيةً. ولما وضعتها في البئر أحسست أنها لامست القاع. أمّا الأنبوب الثاني فكان معدنياً رقيقاً، ما جعله مثاليّاً لاستخدامه مكبساً. وكان السيد غودستين قد لحم حلقة في طرف الأنبوب المعدني، وأبقى الفتحة الرئيسة مفتوحة. ثمّ ثبتت حول الحلقة قطعة مطاطية غليظة مأخوذة من درّاجة هوائية، بوصفها صماماً للإدخال، أو سدادة. بعد ذلك، طلبت إليه أن يثني الأنبوب المعدني من أعلى بزواية قدرها تسعون درجة ليتشكّل مقبض. وعند تحريك المقبض المعدني إلى أعلى وأسفل، يتكوّن ما يشبه الفراغ داخل الأنبوب البلاستيكي. أمّا عند رفعه إلى أعلى فيُسحب الماء إلى الأنبوب البلاستيكي، في حين تفتح السدادة المطاطية عند إعادته إلى أسفل، فيدفع الضغط الماء نحو السطح. وبذا، ينتقل الماء إلى أعلى بوساطة الأنبوب البلاستيكي ليعبر فتحة كنت قد أذبتها على الجانب.

لكنني واجهت مشكلةً أخرى تمثّلت في احتكاك السدادة المطاطية احتكاكاً زائداً بالأنبوب البلاستيكي. فما إن بدأت شقيقتي باستخدام المضخة، إلى جانب نسوة من قرية مجاورة، حتى واجهن صعوبة في استعمالها.

قالت والدتي: لا أستطيع تشغيل هذا الشيء. يبدو أنها عالقة.

حاولت دهن الأنبوب ببعض الشمعة، لكنّ الماء البارد تسبّب في جعلها (الشحمة) غليظة كالهلام، فلم تتوزّع بالتساوي. وسرعان ما تركت الأمر برمّته.

لم تصب المضخة نجاحاً كبيراً، لكنّ فشلي في محاولة سحب الماء لا يُقارَن به لدى محاولتي إنتاج الغاز الحيوي.

فقد ذكرت فيما مضى أنّ إزالة الغابات في مالواي جعل توفير الحطب لأغراض الطهي أمراً صعب المنال، ولم يزد جمع الحطب هذه البقعة المدمّرة إلا خبالاً. وقد اعتدنا حين يكون محصول الذرة وافرأ، تجميع كميات كافية من العرائيس الجافة لاستخدامها حطباً مدّة أربعة أشهر. ولكن، ما إن ننتهي من ذلك حتى يبدأ البحث عن الحطب مجدداً.

كانت والدتي وشقيقتي يسرن يومياً كيلومترات عدّة لبلوغ غابة صغيرة من أشجار اليوكالبتوس، تقع قرب كاتشوكولو؛ بغية تقطيع حُزم من الأشجار الصغيرة، وهو عمل كان يستغرق ثلاث ساعات في الأقل. كانت معظم تلك الأشجار لا تزال حية خضراء. لذا، كان علينا تركها جانباً خمسة أيام تقريباً حتى تجف. كانت تلك المدّة طويلة في الواقع. لذا، كنّا نحرقها على أيّ حال، الأمر الذي كان يتسبّب في انبعاث دخان أبيض كثيف من نوافذ المطبخ. وذات مرّة، نظرت إلى الداخل، فرأيت والدتي المسكينة تحرّك طبقاً من السیما وهي تفرك عينيها المقفلتين اللتين انهمرت منهما الدموع على وجنتيها. كانت النساء في عائلتنا يُصَبْنَ بحالة سيئة من السعال كلّ عام.

تعاني كلّ امرأة مالوية هذا العبء وتبعاته. وقد أيقنت أنّ رحلات إيجاد الحطب تلك ستستغرق - بعد حين - وقتاً طويلاً، لدرجة أنّنا لن نحصل على أيّ من الوجبات. والأدهى من ذلك أنّ وضع تلك البقعة سيزداد سوءاً، مُخلِّفاً آثاراً سلبية على صورة جفاف وفياضانات. لذا، يتعيّن على أحد ما التدخّل لإنقاذ نساءنا وأشجارنا. فقلت لنفسي: لماذا لا أكون أنا؟ وكانت بعض النسوة قد سألنني بعدما بنيت الطاحونة الهوائية: هل تنتج الرياح الكهربائية طاقة تكفي حاجة الأمهات من الطهي؟

ولسوء الطالع، لم تكن تلك الطاقة كافية قطّ.

لم تكن طاحونتي الهوائية تولّد فولتية تكفي لتشغيل موقد مناسب. لذا، بدأت بالبحث عن أفكار أخرى. وكنت قد أجريت تجارب جديدة على الأسلاك والبطاريات قبل ذلك بأسابيع. حينها أخذت قطعة غليظة من العشب المستخدم في بناء السقوف والسيّاح، ثمّ لففتها بسلك نحو عشرين مرّة، ثمّ وصلت طرفي السلك ببطارية فولتيها اثنا عشر فولتاً،

فأحسست بحرارة. وسرعان ما توهَّج السلك، وتحوَّل إلى اللون الأحمر بفعل الحرارة، فاشتعل العشب في يدي. كانت تلك مجرد تجربة طفولية بسيطة، لكنَّها أعطتني الفكرة الآتية.

قلت لنفسِي: حسناً، ربَّما ساعدني ذلك على غلي الماء. لكنَّني - في واقع الأمر - لم أتمكَّن من وضع قدر الماء المعدنية على بكرة من أسلاك؛ لأنَّها ستعمل بوصفها موصلاً فقط. أمَّا إذا استخدمت قدراً فخارية فإنَّها ستسحق البكرة. لذا، صمَّمت بكرة على شكل صولجان سحري بمقبض بلاستيكي مصنوع من قلم حبر جاف مفرغ. وكنت قد رأيت تلك البكرات ذات المقابض سابقاً - في السوق التجاري - لكنَّها كانت تُزوِّد بالطاقة عن طريق شركة التوليد الوطنية بدل البطاريات. فقامت بوصل سلك ببطارية فولتيتها اثنا عشر، ثمَّ وصلته بالبكرة تحت المقبض. ولمَّا غمرت البكرة بالماء بدأ يغلي خلال خمس دقائق.

كان ذلك الأمر مجرد تجربة بسيطة جداً. لذا، تعيَّن عليَّ التوسُّع. أذكر أنَّ كتاب العلوم الموَّحدة ضمَّ قسماً صغيراً عن الوقود البديل، مثل: الطاقة الشمسية، والطاقة المائية، وكنت قد درست عن كليهما سابقاً. لكنَّه أشار أيضاً إلى شيء يُدعى الغاز الحيوي الذي يُنتَج عن طريق تحويل فضلات الحيوانات إلى وقود سائل يُستخدم للطهي فيما بعد؛ وذلك بعد دفن فضلات الحيوانات في حفرة مدَّة شهر لكي تسخن، ثمَّ تصريف الغاز الناتج عن طريق صمام.

قلت لنفسِي: لست في حاجة إلى حفرة، ولست في حاجة إلى الانتظار تلك المدة كلَّها أيضاً.

لذا، فقد وضعتُ خطة خاصة بي؛ إذ تسلَّلت إلى مطبخ والدتي، ثمَّ خطفت قدراً فخارية مدوَّرة كبيرة تستخدمها لطهي الفول. وكلُّ ما أحتاج إليه الآن هو بعض من المادة العضوية، ولم يكن ذلك بالأمر الصعب. فقد كانت عمَّتي كريسي تربي عنزتين في حظيرة خشبية خلف منزلها. وكانت الأرضية مغطَّاة بفضلات الماعز التي تشبه كُرات البلور المدوَّرة.

وبعد أن أخذت كيس سكر فارغاً، وتأكدت أن أحداً لا يراني، تسلَّقت السياج، ثمَّ دخلت الحظيرة. حينئذٍ، تراجع العنزتان نحو الزاوية، ونظرنا إليَّ باستغراب، لكنَّني تابعت العمل. فملأت الكيس حتى فاض، ثمَّ عدت إلى المطبخ.

كانت والدتي تعمل في الحديقة، الأمر الذي منحني وقتاً ومساحة كافية للعمل. فوضعت الفضلات في القدر الفخارية، ثم ملأت نصفها بالماء، حتى أصبحت كرات الفضلات البنية تسبح داخلها. بعدئذٍ، غطيت الفوهة بأكياس الجامبو البلاستيكية، ثم ربطتها بحبل لتثبيتها بإحكام. ولما فرغت من ذلك صنعت صماماً بقطع الجزء العلوي من هوائي مندياع؛ لأحصل على أنبوب مجوّف، ثمّ غرزته في منتصف الغطاء البلاستيكي، ثمّ أقفلت فوهة الهوائي بقصبة.

كانت النار التي أشعلتها والدتي لتحضير الإفطار ما تزال ساخنة. لذا، أضفت إليها حفنة من تبين الذرة، ثمّ نفخت عليها حتى اشتعلت، ثمّ ركّزت عليها القدر، مُنتظراً حدوث الأمر العظيم.

وبعد نحو ربع ساعة، سمعت قرقعة داخل القدر، وبدأ الماء يغلي، ثمّ انتفخ الغطاء البلاستيكي وأخذ يتراقص من جرّاء البخار، لكنّ الجبل كان ثابتاً. بدأ قلبي يخفق بشدّة، ثمّ انتظرت ثواني قبل أن أبدأ الاختبار الأخير. وفجأة، سمعت صوتاً قادمًا من خلفي؛ إنَّها والدتي.

صرخت قائلة: ما هذه الرائحة؟

أجبت: غاز حيوي، إنّه...

قالت: إنَّها فضيحة!

في تلك الأثناء، كان الغطاء البلاستيكي يقرقع بشدّة ويكاد ينفجر. فأدركت أنّه يتعيّن عليّ التصرف بسرعة؛ إذ كان الوقت قد حان لإزالة القصبة، وبدء عملية الإشعال.

ذهبت بسرعة لأزيل القصبة. وحين فعلت ذلك، خرج عمود بخار رمادي من الفوهة. كانت والدتي محمّّة؛ فالرائحة كانت نتنة. كنت قبلاً قد جهّزت قطعة طويلة من العشب، فتناولتها ووضعتها في النار، فاشتعلت. ثمّ صرخت قائلاً: تراجع! قد يكون هذا خطراً.

قالت: ماذا؟

وقفت، ثم ركضت نحو الباب دافعاً والدتي جانباً. وبعد أن أصبح نصف جسدي خلف الباب، مدت ذراعي مقرباً الشعلة شيئاً فشيئاً، ثم قلت: ها نحن أولاء.

وقبل أن تلامس النارُ الغازَ المتصاعد، أغلقت عينيَّ خشيةً الوميض. وما هي إلا لحظات حتى حدثت فرقة صغيرة سرعان ما تلاشت. وحين فتحت عيني، كان كل ما رأيته هو قطعة عشب تقطر ماءً أسناً، فجئن جنون والدتي، وأخذت تصرخ: انظر ماذا فعلت. لقد أفسدت أفضل قدر لدي! لا أصدق أنك تغلي فضلات الماعز. سأخبر والدك بالأمر.

حاولت أن أشرح لها أن ما فعلته كان من أجلها، لكنني أعتقد أن الوقت لم يكن مناسباً.

في أواخر عام 2003م، عندما كنت أقرأ كتبي تحت شجرة المانجو خاصتنا وأفكر في تجاربي، ذهبت والدتي لزيارة أهلها في ساليما، ومكثت هناك أسبوعين. تقع ساليما بمحاذاة البحيرة، وهي تتمتع بمناخ حار؛ ما يفسر وجود أعداد كثيرة من البعوض فيها، حتى يُخيل للرائي أنها طيور صغيرة متوحشة. وحين عادت والدتي إلى البيت، أُصيبت بحمى ودوار، ثم بدأ كل جزء في جسدها يرتعش كأنها وُضعت في حوض مليء بالثلج. كنا نعرف أن تلك هي أعراض الملاريا.

يصاب جميع سكان الدول الإفريقية الواقعة جنوب الصحراء الكبرى بالملاريا في مرحلة ما. ويتعرض معظم الأشخاص للمرض في مرحلة الطفولة. وفي حال لم يحط الواحد منهم سريره بشبكة (ناموسية) مناسبة لتجنّب قرصات البعوض، فإنه يعرض نفسه للإصابة بالعدوى كل عام، إلى أن يصبح كهلاً يغلب على مَحِيَّاه اللون الرمادي. وقد شكّلت الملاريا معضلة لنا جميعاً؛ نظراً إلى خلوّ بيتنا من أيّ شباك. وإذا كنا محظوظين باكتشاف المرض قبل تفاقمه، وتناول الأدوية التي تزوّدنا بها العيادة، فسنشعر بتحسن خلال أسبوع أو اثنين. ولكن، توجد أنواع أخرى من الفيروسات توصف بأنها أكثر شراسة وخطراً من غيرها؛ فهي تهاجم الدماغ مباشرة، ويصعب علاجها. ولسوء الطالع، فإن الملاريا تقتل أكثر من مليون شخص في إفريقية كل عام، معظمهم من الأطفال.

بدأت الأعراض التي تعانيتها والدتي عادية. لذا، وضعناها على السرير، وخططنا لجلب أدوية لها في اليوم اللاحق. لكن الحمى أخذت تشتد مع مرور الوقت، شأنها في ذلك شأن

شقيقتي ميليس. ومع بزوغ شمس الصباح، كانت والدتي تتقيأ وترتعش أكثر من ذي قبل، وأصبحت لا تقوى على الكلام. ثم أخذت تتنفس بصعوبة، لدرجة أنني تمكّنت من سماع ذلك في أثناء وجودي بغرفتي. ومع حلول الظهيرة، فقدت الإحساس بساقيها.

ولمّا كانت قريتنا تفتقر إلى وجود سيارة إسعاف، فقد حمل والدي والدتي على درّاجته الهوائية، وطلب إليها التمسك، ثمّ توجه بها صوب العيادة الواقعة قرب المركز التجاري. وحالما ألقت الممرضات نظرة عليها، طلبن إلى والدي أن يأخذها إلى المستشفى الإنجيلي في متونثاما على وجه السرعة. وسرعان ما لوّح والدي لشاحنة فتوقّفت، ثمّ وضع والدتي في الخلف.

سأل الطبيب في غرفة الانتظار بمتونثاما: ما الأعراض؟

أجابت والدتي: أعجز عن السير. أشعر كأنّ ساقي أصابهما الشلل.

بعد الفحص وثبوت إصابتها بالمalaria، أعطاها الأطباء حقنيتين في ساقيها. ولكن، لم يكن هنالك أسرّة شاغرة في المستشفى. لذا، فقد اضطرت إلى العودة إلى البيت.

بدأت والدتي تفقد الوعي بعد ذلك بيومين. وفي صباح اليوم الآتي، تمكّنا من إيقافها على قدميها، ثمّ سرنّا بها نحو الخارج. وما هي إلا لحظات حتى وضعناها على الدرّاجة الهوائية، وكنا حريصين على ألا تقع عنها.

قلت: عليك التشبّث يا أمّاه. ولكن، من دون فائدة.

وفي أثناء دفعنا إيّاها أسفل الطريق، ظلّ جسدها الضعيف ينهار ككيس من الفول؛ إذ اندفع رأسها نحو الوراء، فأمسكت بشعرها؛ لأسنده.

لا تقلقي، حاولي أن تتمالكي نفسك إلى أن نصل الطريق. سنأخذك إلى المستشفى وسيعالجونك لتصبحي على ما يرام، قال والدي ذلك مراراً والخوف باد في نبرة صوته.

كان موقف الشاحنات يمثّل حيزاً صغيراً تحت بعض أشجار المانجو قرب العيادة والمدرسة الابتدائية. وما إن وصلنا إلى هناك حتى أنزلنا والدتي عن الدرّاجة بلطف، ثمّ

مددناها على العشب. وبعد دقائق معدودة جاءت شاحنة تهدر من السوق التجاري، وكانت متوجَّهة صوب كاسونغو. لَوَّح لها والدي كي تقف.

صرخ قائلاً: افسحوا مجالاً! زوجتي مريضة!.

كان هنالك نحو عشرة أشخاص يحشرون أنفسهم في الجزء الخلفي من الشاحنة، إلى جانب صناديق الكوكا كولا الفارغة وبعض أكياس الذرة. وحين شاهدوا حال والدي، قفز بعضهم من مكانه مُفسِحاً المجال. صرخ والدي مخاطباً السائق: إنَّها مصابة بالملاريا، خذنا إلى متونثاما!.

وضعناها في صندوق الشاحنة، وأسندنا ظهرها إلى المقصورة. جلس والدي إلى جانبها وثبَّتْها، واضعاً رأسها على كتفه، ثم قال:

اعتنِ بشقيقتك يا ويليام، وأخبر شقيقتي كريسي والبقية عن مكاننا. وسرعان ما انطلقت الشاحنة.

كان الطريق إلى متونثاما مليئاً بالحفر والمطبات، الأمر الذي أدى إلى رجِّج جسدها، وزحزحة عظامها عن مكانها.

وصلت الشاحنة إلى المستشفى بعد ربع ساعة، فحمل والدي والدي بذراعيه عبر الباب، وهو يصرخ قائلاً: نحتاج إلى طبيب حالاً.

أُدخِلت والدي في إحدى الغرف بسرعة، ثم أُعْطيت الدواء عبر قسطرة بالوريد؛ لتقاوم المرض.

قال الطبيب: الوضع ليس مُبشِّراً. يبدو أنَّه وصل إلى الدماغ.

كانت الغرفة مطلية باللون الوردى، ومضاءة من شركة التوليد الوطنية. وقد علَّق على الجدران كثير من الصور الكبيرة التي تُظهر أناساً يعانون أمراضاً مختلفة، مثل: الإيدز، والسل، والسيلان. كانت هنالك امرأة مستلقية على السرير المجاور لسرير والدي. كانت من تشاماما، وظلَّت تتقيأ داخل كيس.

في ظهيرة ذلك اليوم، وصلت العمّة كريسي وماري، زوجة عمي سقراط، إلى بيتنا، وقضيتا الليلة عندنا تتلوان الصلوات. عاد والدي إلى البيت أيضاً، وحاول بيع بعض الذرة وفول الصويا لتأمين نفقات العلاج. كان هادئاً، وظلّ يزرع الباحة كمنّ ينتظر شيئاً.

سألت ميليس: هل ستكون أمّي على ما يرام يا أبي؟

أجاب: إنّها مريضة جداً. لتصلّي من أجل والدتك.

تمكّن والدي في صباح اليوم اللاحق من بيع بضعة كيلوجرامات من الحبوب في السوق التجاري، ثمّ قفل عائداً إلى المستشفى. تطوّعت للبقاء في البيت، ورعاية شقيقاتي: كنت أيضاً أخشى رؤية والدي على تلك الحال. وحين امتلكت الشجاعة لفعل ذلك صباح اليوم التالي، سرعان ما ندمت على ذلك.

بدت بشرة والدي السمراء مخطوفة اللون مقارنة بالأغطية البيضاء، وكانت شفاتها جافتين متشققتين. كان صدرها يعلو ويهبط بسبب ضيق التنفس كزورق ورقي يتلاطم بين الأمواج. كانت عيناها مقفلتين، لكنّ مقلتيها تتراقصان في الداخل.

أخبرتني والدي لاحقاً أنّها كانت قد استسلمت للموت عندما غرقت في الظلمات. كانت قد تخلّت عن صمودها، وتنتظر يسوع ليأتي ويأخذها. لكنّ شيئاً كان يمنعها من المغادرة. كانت تشعر بجسدها النحيل يغوص في السرير، ثمّ يرتفع مجدداً فجأة. وفي أثناء ذلك، كانت تفتح عينيها، فتشاهد أناساً تعرفهم يقفون حولها. كان الظلام يحلّ فجأة لتعاود الكرّة مجدداً. وقد ذكّرتها رؤية أولئك الناس بأطفالها؛ إذ حلمت في مرحلة ما من العتمة بشقيقتي تياميكي الصغيرة والضعيفة. كانت في الحلم وحدها وخائفة؛ لأنّ والدتها توفيت. وقد دفعها التفكير في ابتها إلى محاولة التخلص من الظلام للأبد. لقد كان صراعاً مريعاً يفسّر سبب تلويّ عيني والدي كالنمل الأبيض. وحين تمكّنت من تحرير نفسها وفتح عينيها، رأيتني واقفاً إلى جانبها. فصرخت قائلة: تياميكي! أين تياميكي؟ أين طفلي؟

قفزت إلى الخلف كمنّ رأى ثعباناً للتو. كانت عيناها متسعبتين، وتبضان بالخوف.

تياميكي!

قالت عمّتي: تياميكي في البيت، سترينها عمّا قريب، لا تقلقي.

بدأت والدتي تتسل عائدة إلى الظلام ببطء كأنّها تتفرّغ من الهواء. وكلّما كانت تصحو من الغيبوبة، كانت تنادي اسم شقيقتي مجدّداً. إنّ رؤية المرء والدته على تلك الحال يجعل النفس تعتصر ألماً وحرزناً؛ حتى يُخيّل إليه أنّ السماء تكاد تنفطر من فوقه. كنت موقناً أنّها ستموت، وما جعل الأمر أشد وطأة هو مراقبتي إيّاها في أثناء ذلك. ولكن، بعد أيام عدّة، زالت الحمى بما يشبه المعجزة. لم أكن قد دعوت الله هكذا من قبل.

بعد وقت قصير من عودة والدتي إلى البيت، أخبرني غيلبرت أنّ والده ليس على ما يرام. وكان الزعيم قد عاش خائفاً على سلامته مُدّ تعرّض للضرب على أيدي بلطجية الرئيس، وتدهورت صحته بصورة ملحوظة أيضاً.

وكلّما مررت ببيته كنت أراه هادئاً ضعيفاً، وقد فقدَ كثيراً من وزنه حديثاً. وفي حال كانت الشمس دافئة، كان يعمد إلى النوم على الأريكة، أو السير وحيداً في الحقول. لم أكن أجرؤ على التحدث إليه؛ لأنّه الزعيم، لم أكن مؤهلاً لذلك بحكم سنّي.

وبعد أشهر عدّة، ذهبت لزيارة جيفري في مكان عمله بتشيبومبا، فشاهدت بعض النسوة في الطريق، وقد نقلن إلى المارّين خبراً محزناً. قلن والدموع تترقرق في أعينهنّ: لقد توفي الزعيم ويمبي يا إخوتنا.

صعدت أنا وجيفري على درّاجتي، محاولين الوصول إلى البيت بأقصى سرعة، لكنّ الإطار انفجر، فاضطررنا إلى السير والدفع. وفي الوقت الذي كنا فيه نصارع الدراجة، كانت التحضيرات للجنائز قد بدأت؛ إذ مرّت بنا أعداد كبيرة من السيارات والشاحنات. وكانت سيارات الشحن مليئة بالدجاج والمعز وأكياس دقيق كبيرة؛ بغية إطعام الزائرين الذين بدأوا يتوافدون لتكريم الزعيم.

شاركت عشرات من نساء القرية أيضاً في إعداد الطعام وطهيه للمعزّين. وقد التزم المارّون كافة الصمت. ولم تُسمع أصوات أجهزة المذياع. وما إن هدأت حركة السير حتى سُمع صوت قرع طبل قوي؛ صوت لم أسمع مثله من قبل، كان يمثّل نغمة حزينة، كمطرقة تطرق أبواب السماء؛ لقد مات زعيم.

حين وصلنا، كان هناك مئات من الأشخاص المتجمعين حول بيت غيلبرت. رأيت والديّ وشقيقتي، وأعمامي، وعمّاتي، إلى جانب تجار السوق كافة. وكان هناك بعض النسوة يركضن جيئةً وذهاباً وهنّ يحملن دلاء الماء على رؤوسهنّ. في حين انحنّت أخريات نحو النار وقد لفهنّ دخان الحطب، والعرق يتصبّب منهنّ، ثم أخذن يحركن قدوراً ضخمة من السيما. وفي هذه الأثناء، وقفت جوفة كنسية تحت أشجار اليوكالبتوس تغني بعذوبة: (الأرض ليست موطني)، في حين خرج رتل من الناس عبر الباب الأمامي صارخين منتحبين:

لقد تركنا الملك. ماذا سنفعل من بعده؟

جلست أنا وجيفري تحت شجرة ننتظر. وسرعان ما جاء شخص وأخبرنا أنّ غيلبرت مستعد لرؤيتنا. كان جالساً تحت الأشجار في الجانب الآخر من البيت، وقد بدا أنّه أصيب بصدمة، مع أنّه حاول التماسك لأجل والدته. لقد غمرتني رؤيته بذلك الحال حزناً.

قلت: لقد سمعت ما حدث لوالدك. تعرف أنّني أسألك في مثل هذه الأوقات العصيبة. توكل على الله. لم أدر ما أقول غير ذلك. لذا، بقيت صامتاً بعدما واسيت صديقي.

أقيمت مراسم الجنازة في باحة المدرسة الابتدائية تحت أشجار اليوكالبتوس الكبيرة. وفي هذه الأثناء، بدأ مطر خفيف بالهطل، ثمّ نصب شخص ما سُرّادق لاستقبال عائلات الزعماء، ومدوبيهم، والمسؤولين الذين جاؤوا من كلّ حدب وصوب. وفي الوقت الذي تجمّعوا فيه تحت عريشة، ربض مئات القرويين في الخارج ينوحون ويبكون تحت المطر. كان جثمان الزعيم مسجّى في الأمام داخل تابوت خشبي مغطّى بالأزهار البرية. وقد حضر المراسم ممثلون عن جميع الكنائس والمساجد في ويمبي وما حولها. ثمّ تناوبت جوفاتهم على الوقوف عند الصندوق الخشبي، منشدين أغاني بلغة تشيتشيوا. وحين فرغوا من الترانيم، لم يكسر حاجز الصمت إلّا قرع الطبل.

كانت الترانيم الجنائزية بطيئة رزينة، ثمّ ارتفع نسقها ونبرتها. بعد ذلك، مشى راقصو الغولي والمكولو على وقع إيقاع سريع غاضب. فقد تزاحم نحو خمسين منهم حول التابوت، وارتدى كلّ واحد قناعاً أسود على شكل رأس بقرة، مع خراطيم طويلة جداً، وقرن سود، وعيون مستديرة جاخظة. مضت أيام على وجود هؤلاء الراقصين الصوفيّين هنا، وكانوا

قد نصبوا خيامهم خلف بيت غيلبرت، وربضوا حول نيرانهم دون أن يكشفوا عن وجوههم. وقد انسلخ بعضهم الآن عن المجموعة، واجتاحت أجسادهم نوبات في أثناء الرقص. كانوا يتقرفصون بانسجام، راكبين بأرجلهم، وماسحين التربة الحمراء بأيديهم، كأنهم يخبرون الأرض أنها على وشك احتضان الزعيم.

تحرك الموكب الجنائزي بعد انتهاء الرقص صوب المقبرة القريبة من الكنيسة الكاثوليكية. وقد حُفر قبر الزعيم بالطريقة نفسها التي حُفر بها قبر عمي جون؛ أي عمل غرفة صغيرة داخل قاع الحفرة. تليت الصلوات، ووضعت الأكاليل على التابوت. ثم ظهر السيد نغواتا ساعي الزعيم بزي الشرطة القاتم، وأطلق بعض العيارات النارية في الهواء. وما هي إلا لحظات حتى شاهدنا زعيمنا وهو يسجى في الأرض، والوجوه الحزينة تقطر بالدموع، والآذان تُصمّ بطنين الضجيج.

لم تكد قريتنا تلملم أحزانها بعد وفاة الزعيم حتى أحاقت بالبلاد مجاعة أخرى في وقت لاحق من العام نفسه. وقد حلت المجاعة على الرغم من الأمل الجديد الذي انتظرناه طويلاً؛ ففي شهر أيار من عام 2004م، تنحى الرئيس المنبوذ مولوزي عن الحكم أخيراً، مُفسحاً المجال لإجراء انتخابات جديدة. وقد اختار المالايون بينغوا و موزاريكا رئيساً جديداً للبلاد. كان موزاريكا رجلاً يتحلّى باحترام الجميع، وكان قد حصل على شهادة في الاقتصاد من الولايات المتحدة، وشغل منصباً رفيعاً في الأمم المتحدة. تعهد الرئيس الجديد بإحداث تغيير سريع في مالاي، ووضع على سلم أولوياته مساعدة المزارعين أمثالنا. ثم بدأت الحكومة في موسم الزراعة اللاحق بدعم السماد؛ ما يعني أنه أصبح بإمكان عائلتنا تحمّل كلفته لأول مرة منذ ثلاثة أعوام.

خففت كوبونات السماد السعر ليصبح تسع مئة وخمسين كواتشا بعد أن كان يُباع بأربعة آلاف، حيث كان نصيب كل عائلة أربعة كوبونات. لكن ذلك الإجراء لم يكن فاعلاً بسبب ثقافة الفساد المتأصلة سلفاً. فبدلاً من توزيع الكوبونات على المزارعين مباشرة، قام كثير من الزعماء المحليين بكنزها وبيعها لمن يملك المال.

في شهر كانون الأول من عام 2005م، تلقت كل عائلة تعمل بالزراعة أربعة كوبونات. فقامت أنا والوالدي بتوزيع مهمة جر الأكياس فيما بيننا؛ بأن أخذ كل منا كوبونين، ووقف طوال النهار في طابور شركة إدمارك في ويمبي، حيث تباع الحكومة الذرة والسماد. أخذ والدي أكياسه وغادر. ولكن، عندما حان دوري، كان المسؤولون الفاسدون قد أعطوا معظمها لأصدقائهم، ثم أفلوا الشركة مبكراً، فبدأ المزارعون المصطفون يُحدثون شغباً.

أسرعت إلى النافذة لأرى ما يحدث في الداخل. وما إن وضعت وجهي على الزجاج حتى أحسست بألم حاد في ظهري. كان أحد بلطجية الحكومة الذين يعملون على حفظ الأمن واقفاً خلفي ويضربني بخرطوم.

صرخ قائلاً: اخرج من هنا أيها القرد الصغير!، وراح يلوح بخرطومه غاضباً، ثم ضربني مجدداً على ذراعي، وأتبعها بضربات عدة على ظهري. أحسست بألم يسري في عمودي الفقري، فهربت بأسرع ما يمكن. وفي هذه الأثناء، حُشر رجال آخرون كانوا في الانتظار إلى جدار، وجلِدوا من دون شفقة. وما إن أصبحت على مسافة آمنة حتى شعرت بوجهي يحمر من شدة الغضب. وقد هممت أن أقتله، لكنه كان قويًا جداً. لذا، لم يكن هنالك أي أمل في ذلك.

صرخت قائلاً: أنت محظوظ لأن والدي غادر آنفاً.

تمكنا بعد ذلك من الحصول على كيسين آخرين من السماد، فبدأنا نحضر للزراعة. هطلت الأمطار كالمعتاد في البداية، فزرعنا البذور بأن مشينا عبر صفوف الذرة حاملين السماد، لنضع عرّفة منه في حفرة بجانب مكان البذور، ونغطيها مجدداً بالتربة.

كانت الفسائل قد بدأت تنمو مطلع شهر كانون الثاني، حتى وصلت إلى الكاحل بأوراقها الصغيرة، فرحة بتغذيها بالمطر والسماد اللذيذين. ولكن، ما إن وصل ارتفاعها إلى ركلة والدي حتى توقّف هطل الأمطار تماماً. كانت الشمس تشرق كل صباح بغضب لتؤدي الفسائل المسكينة، وتودي بها إلى الذبول والانحناء. وسرعان ما أصبحت أوراقها جافة وهشة، لدرجة أنّها كانت تحرق وتستحيل رماداً إذا قربنا منها عود ثقاب مشتعلًا.

قال والدي: سنواجه مشكلة في العام القادم.

فرددت قائلاً: لا أعرف إذا كان بإمكانني تحمّل عام آخر (من الجفاف).

هطل المطر مرّات أُخرى محدودة في شهر شباط؛ ما ساعد على تشكّل اللب فحسب. ولكن، ما إن جاء موسم الدوي حتى كانت معظم الثمار غير مكتملة النمو ومشوّهة. سيكون موسم الحصاد مرّوعاً. ومع أنّ الحكومة وعدت بالتدخّل سريعاً، فإن الناس بدأوا يشعرون بالسخط والخوف.

ففي مجاعة عام 2002م، ألقى سكان منطقتنا اللوم على حكومة مولوزي التي كانت لا تحظى بأيّ شعبية، وعبروا عن سخطهم حيال المسؤولين الفاسدين الذين باعوا فائض الذرة. ولكن، بدلاً من إلقاء اللوم على الطقس السيئ هذه المرّة، بدأوا يلومون السحر، ما يعني أنّهم يلومونني أنا.

كانت الخرافات لا تزال تلقى قبولاً كبيراً في شتّى أنحاء البلاد، وقد فاقم من المخاوف وقوع حوادث عدّة تحدثت عنها الأخبار. وكانت المجاعة السابقة قد تسبّب في ظهور تقارير واردة من المنطقة الجنوبية، تفيد أنّ الحكومة تسلّحت بمجموعات من مصاصي الدماء؛ لسرقة دم الناس وبيعه لمنظّمات الإغاثة الدولية. فأصاب الجنون حينها حشوداً من الناس، وتعرّض رجل مُسنّ للرجم حتى الموت، في حين تعرّض ثلاثة كهنة كاثوليكيين لضرب مُبرّح. وقد أنكرت الحكومة – وقتئذٍ – تورّطها مع أيّ من مصاصي الدماء، لكنّ ذلك لم يقض على الإشاعات. قال الرئيس مولوزي حينها: «لا تقوم الحكومات بمص دم شعوبها. فتلك بلطجة».

تبع دراما مصاصي الدماء تلك ظهور وحش غريب في دوا يهاجم القرى. قال بعضهم: إنّه يشبه الضبع، وقال آخرون: إنّه أسد بوجه كلب. وكان ثلاثة أشخاص قد تعرّضوا للضرب حتى الموت، وفُصِلت أذرع وسيقان عن أجساد ستة عشر غيرهم. وأجبرت الهجمات الآلاف من الناس على الهرب من بيوتهم، والنوم في الغابة، مانحين المخلوق الغريب فرصة أفضل لمهاجمتهم.

سيّرت الشرطة كثيراً من دوريات البحث في أثناء الليل، وتمكّن بعضها – في إحدى الليالي – من محاصرة الوحش في أحد الأدغال. ولكن، وفقاً لما نشرته الصحف، فقد كان

الوحش ينفصل إلى ثلاثة حيوانات كلِّما أطلقوا عليه النار، ويختفي بين الأحرش. بعدئذٍ، زار القرويون السينغانغا (الساحر) الذي كان يقوم بإعداد دواء (خلطة) فاعل، ثمَّ يقذف به فوق الأشجار. وقد عُثِرَ على الوحش جثة هامة على الطريق في صباح اليوم اللاحق، وكان حجمه لا يتعدى حجم كلب. وحين حاول كبار القوم حرق الجثة لم تتمكَّن النار منها.

عاد القرويون إلى بيوتهم. ولكن ما إن شعر الجميع بالأمان مجدداً حتى بدأ وحش آخر بالهجوم والقتل مرّة أخرى، فعاد الآلاف إلى الغابة مجدداً. وقد تبين - في وقت لاحق - أنّ الوحش كان من فعل السحر؛ إذ كان تاجر يعيش قرب دوا قد اشترى بعض الرعد والبرق من ساحر مُتمرّس، لكنّه أبى الدفع لاحقاً. وقد انتقم الساحر بأن أرسل الوحش لمهاجمة عائلة التاجر. وكان جميع من تعرّضوا للقتل والتشويه من أقاربه.

تخلَّل ظهور وحش دوا الغريب، ورود أنباء من مختلف أنحاء مالواي عن أناس تعرّضوا لسرقة أعضائهم في أثناء الليل، ليستيقظ كثير منهم صباحاً وأغطيهم مشبعة بالدم. وكان الرجال الذين يعاقرون الخمر في الحانات فريسة سهلة؛ فعندما كانوا يعودون مترنّحين إلى بيوتهم في الظلام، كان يسحبهم مخلوق شرير - قد تكون مجموعة من الأطفال الذين يعملون لمصلحة المشعوذين - خلف شجرة لينتزع أعضاءهم بسكين. وقد تبين من الكشف لاحقاً أنّ معظم الضحايا كانوا أسوياء (غير شذاذ)، وأنّ أعضاءهم بيعت للمشعوذين، وعبدة الشيطان، ولرجال أعمال متنفّذين.

تسبَّب ما حدث في إشاعة التوتر والهلع بين جموع الناس؛ ما دفع بزعيم المعارضة، المحترم جون تيمبو، إلى عرض القضية على البرلمان، حيث قال شيئاً من قبيل: من غير المقبول أن تبيع أعضاء أناس آخرين، لا سيّما أنّك تترك أعضاءك الشخصية.

وسرعان ما وصلت موجة الخرافات والخوف تلك إلى ويمبي. فقال أناس: إنّ بعض المشعوذين يسكنون قرب المركز التجاري، ويستغلون الأطفال لأغراض السحر. وحدث أن أمر المشعوذون الأطفال - ذات ليلة - بمهاجمة رجل عجوز معروف بأنّه مسيحي صالح. فعندما كان العجوز نائماً، أزال الأطفال رأسه بسحرهم، ثمَّ استخدموه للعب كرة القدم (كان ذلك يحدث غالباً في أثناء نومنا؛ إذ يمكن لأطفال المشعوذين أخذ رؤوسنا، ثمَّ إعادتها قبل

الصباح من دون أن نشعر. إنَّها مشكلة خطيرة). لم تكن مباراة كرة القدم تلك عادية، بل بطولة كبيرة تقام في زامبيا بين أطفال الشيطان. وكان كأس البطولة مليئاً باللحم البشري الذي سيُتناوَل في عيد الميلاد.

كان الفريق المالوي يواجه نظيره التانزاني. لكن، ما إن بدأت المباراة وعلا صوت الجماهير من المدرجات حتى وقع شيء رهيب؛ إذ انحرفت الكرة عن مسارها. وحين يحدث ذلك لا يتم إرجاع الرأس فيموت العجوز. ولمَّا أُحْضِرَ رأس آخر لمس أحد الأطفال من الفريق المالوي الكرة بيده داخل منطقة الجزاء، فحُصِبَت ضربة جزاء لمصلحة الفريق الآخر. وانتهت المباراة بفوز الفريق التانزاني بنتيجة (1-0).

أخذ الأطفال الآخرون يسخرون من ذلك الطفل، ويشتمونه في أثناء العودة بالطائرة المسحورة. ثم صرخوا عليه قائلين: لماذا لمست الكرة بيدك؟ لقد حرمتنا الفوز!

بعدئذٍ، أخذ المشعوذون الآخرون بضرب الطفل ضرباً مُبرِّحاً باستخدام سحرهم. وكان ضياع الكأس المملوءة باللحم البشري أكثر ما أزعجهم. وقد صادف أن كان جدُّ الطفل هو الزعيم القبلي في قرية مجاورة. لذا، منح المشعوذون الطفل خياراً، بقولهم: عليك أن تقتل جدَّك الليلة، ثم تُحضِر لنا لحمه، وإلا أكلناك بدلاً منه.

تعرَّض هذا الطفل لضرب مُبرِّح بالسحر، لدرجة أنه استيقظ في الصباح مُنْهَكاً، لا يقوى على الحركة. وحين حضر والده لإيقاظه، اعترف الصبي بكل شيء؛ إذ شرح حيثيات البطولة، وكيف انحرف رأس الرجل، وأشار إلى تهديدات المشعوذين.

قال: تعرَّض أحد رجال القرية للقتل على أيدينا. والآن، يريدون مني أن أقتل جدِّي.

غضب والده كثيراً، ثم نقل الخبر إلى الجدِّ الذي كان زعيم القرية. أخبرهم الصبي باسم المشعوذ الذي وظَّفه والأطفال الآخرين، فاتجه حشد من الناس إلى بيته. ضُرب الرجل بالعصي والهروات حتى أشرف على الهلاك. بعد ذلك، أخبر والدا الطفل الزعيم ويمبي (ابن عمِّ غيلبرت الذي تولَّى الزعامة) بالمسألة. فأجرى الزعيم بعض التحريات، وأوقف ثلاثة أشخاص. وقد أُدين المشعوذون في المحكمة الرسمية، وفُرضت عليهم غرامة كبيرة. وفي واقع الأمر، لا يحتوي دستور بلادنا - مع الأسف - على مادة تحميها من الشعوذة. ولأنَّ

من الصعب إثبات وقوعها، فإنّ السلطات محكومة بإجراء التحقيقات فحسب. ويمكنها - في نهاية المطاف - إدانة مشعوذ لانتهاكه حقوق طفل. ولكن، ليس بسبب الخطف أو القتل. أمل أن يتغيّر ذلك يوماً ما.

على أيّ حال، فقد تسبّبت تلك الأحداث في زيادة المخاوف والإيمان بالقوى الشريرة. لذا، في عام 2006م، لمّا ضرب الجفاف محصول الذرة، وزاد احتمال حدوث المجاعة، بدأ الناس يلقون باللائمة على السحر. ففي ظهيرة أحد أيام آذار، حين كانت الحقول تذبذب بفعل الشمس، بدأت سحب كثيفة تتكوّن في المدى.

قال بعض الناس: انظروا، إن السحب تتجمّع. سيهطل المطر اليوم!

وقال آخرون: هذا صحيح، لقد أنقذنا أخيراً!

وكان قد مرّ علينا أسابيع عجاف من دون مطر. لذا، عُدّ منظر الركاب الرعدي الأسود الغليظ فرصة للاحتفال. ولكن، ما إن بدأ السحاب يمرّ فوقنا حتى هبّت ريح قوية حملت معها التربة الحمراء لتلقيها في أعيننا وأفواهنا، مُرسلة زوابع صغيرة عبر الحقول والباحات. ثمّ أخذت تلك الرياح تُبعد السحب شيئاً فشيئاً.

ومع اختفاء السحاب من السماء، وظهور الشمس الحارقة، تجمّع عدد من الأشخاص عند بيتي، وهم يشيرون إلى الطاحونة الهوائية. كانت شفراتها تدور بسرعة لدرجة جعلت البرج يهتز ويتمايل.

- انظروا، هذه المروحة الضخمة هي التي أبعدت السحب. إنّ آله تمنع عنّا المطر!

- هذه الآلة شرّ.

- إنّها ليست آلة؛ إنّها برج مسحور. هذا الولد يتعامل مع المشعوذين.

صرخت قائلاً: على رسلكم! الجفاف يجتاح البلاد بأسرها، وليس قريتنا فقط.

الرياح الكهربائية ليست السبب.

قالوا: لكننا رأينا ذلك بأَمِّ أعيننا!

خشيت أن يجمع هؤلاء عصابة من الناس، ثمَّ يهدموا الطاحونة، أو يفعلوا ما هو أسوأ. لذا، قلَّلت من ظهوري في الأسبوع اللاحق، واعتكفت داخل البيت، حتى إنَّني أوقفت الشفرات في أثناء النهار كي لا تثير مزيداً من الشكوك. وفي هذه الأثناء، كان الناس في السوق التجاري يتحدثون إلى غيلبرت. فقال أحد التجار: بوسعك إخبارنا بالحقيقة. هل هو مشعوذ حقاً؟ هل ما يقوله عن الرياح الكهربائية صحيح؟

أجاب غيلبرت: إنَّه ليس مشعوذاً. تلك طاحونة هوائية، وهي آلة علمية. لقد ساعدته على بنائها.

قال آخرون: هل أنت متأكد؟

أجاب: نعم. اذهبوا وانظروا بأنفسكم.

كان كثير منهم في الواقع يعرف الغرض الذي صُنِعت لأجله الطاحونة، حتى إنَّ كثيراً منهم توقَّفوا عندها لشحن هواتفهم النقَّالة. لكنَّ توجيه أصابع الاتهام إليَّ ساعدهم - حقيقةً - على التخلص من مخاوفهم المتعلقة بالمجاعة الوشيكة. ولحسن الطالع، فإنَّ الحكومة قامت بعد ذلك بوقت قصير بالتدخُّل، وتزويد الأسواق بمئات الأطنان من الذرة. تلا ذلك بأشهر عدَّة، وصول بعض منظمَّات الإغاثة، وتقديمها مزيداً من المساعدة. لم يتعرَّض أحد للموت أو الجوع. لقد عملت مشيئة الله على منع كارثة لا يُحَمَدُ عقباها. لكنَّ ما حدث أَمَاط اللثام عن طريقة التفكير الرجعية التي يتبعها شعبنا، وهو ما يحبطني جدًّا.

كان السحر - مع الأسف - هو الشمَّاعة التي عُلقَت عليها مأساة أخرى في مالايو؛ هي انتشار فيروس نقص المناعة المكتسبة ومرض الإيدز. ففي تلك الحقبة، كان ما نسبته عشرون بالمئة من المالاويين مصابين، وكان الآلاف يموتون سنويًّا. ولم يكتفِ المرض بالفتك بعشرات من المدرِّسين، وحرماننا من تعليم جيد؛ إذ قضى في مطلع عام 2008م على كثير من الفنانين المحليين، ولاسيما الموسيقيين منهم، ما حرم بلدنا من أحد أفضل كنوزها.

فتك مرض الإيدز بالناس بسبب العناد، وعدم الوعي. ولم تحظ قريتنا طوال سنوات بعیادات مناسبة متخصصة في التعامل مع فيروس نقص المناعة المكتسبة؛ لأن الإصابة به كانت تُعدّ وصمة عار. أضف إلى ذلك جهل الناس، وعدم تعليمهم كيفية استخدام وسيلة حماية مناسبة في أثناء الاتصال الجنسي. وكان جُلّ مَنْ يصابون بالمرض، ينكرون الأمر أصلاً. في حين لجأ آخرون إلى السحرة الذين كانوا يعرفون أعراض المرض حالاً، لكنهم يخذعون المريض بقول: أنت على ما يرام يا أخي، لقد تعرّضت للسحر. من حسن حظك أن لديّ علاج.

ادّعى السحرة أيضاً أنهم قادرون على علاج أمراض خطيرة أخرى تتطلب عناية طبية، ما أدى إلى حدوث وفيات غير مبرّرة في بلدنا. كان أحد أشدّ تلك الأمراض فتكاً هو الإسهال، وهو من الأمراض التي زعم هؤلاء السحرة بقدرتهم على علاجها. فقد يتوجّه أحد الأشخاص - مثلاً - إلى ساحر، وهو يعاني ألماً شديداً في معدته، فيخبره الساحر بعلته.

- أنا أعرف علّتك. أنت تعاني حلزونة.

- حلزونة!

- أنا متأكد تقريباً. هل تشعر بحركة في أمعائك؟

- أجل؛ إنه ألم فظيع.

- إنّها حلزونة فعلاً. علينا إخراجها حالاً!

- قم بذلك بسرعة؛ إنّها تؤلم كثيراً.

بعد ذلك، فتح الساحر كيسه الذي يضم جذوراً ومساحيق وعظاماً، ثمّ أخرج منه مصباحاً (لمبة)، قائلاً: ارفع قميصك.

حرّك الساحر اللمبة ببطء - من دون وصلها بأيّ شيء - عند معدة المريض، كأنه يلقي الضوء على شيء لا يراه إلا هو.

- ها هي ذا! هل تستطيع رؤيتها تتحرّك؟

- ماذا؟

– هل يمكنك رؤيتها تحرك قرون استشعارها؟ هذا يفسر سبب ألمك الشديد.

– آه، نعم، أعتقد أنّ بإمكانني رؤيتها. نعم، ها هي ذا.

مدّ الساحر يده في الكيس مجدداً، ثمّ أخرج رزمة من الجذور المجفّفة وغمسها بجرّة تحوي ماءً، ثمّ رشّ دواءه السحري على معدة المريض.

حالما يلامس هذا الماء الحلزونة فإنّها ستموت وتخرج.

انتظر الساحر دقائق معدودة، ثمّ قال: هل تشعر بتحسن؟

أجاب المريض: نعم، أعتقد أنّ الحلزونة قد اختفت. لا أشعر بحركتها.

قال الساحر: جيد. الحساب ثلاثة آلاف كواتشا.

لطالما رافق الإصابة بمرض الإيدز وصمة عار، لدرجة أنّ معظم المصابين به لا يسعون للحصول على علاج إلاّ عن طريق السيغانغا. وكثيراً ما تراهم في السوق التجاري وقد أصابهم الهزال، وتحول لون شعرهم إلى الأصفر الشاحب، وبدت عيونهم مخطوفة اللون. وقد تراهم في أحايين أخرى يُحمّلون في الجزء الخلفي من شاحنة متجهة إلى مستشفى كاسونغو، ولا يعودون أبداً.

أدى غياب التثقيف الصحي أيضاً إلى تعرّض المصابين بالمرض للمضايقات والتمييز من السكان أنفسهم. ودأب الأطفال الصغار على التحرّش بالأشخاص الذين يمرّون بالطريق، وتبدو عليهم أمارات النحافة والضعف، وعلامات تدل على أنّهم واكاتشيلومبو؛ أي مصابون بفيروس.

كانوا يقولون: انظر إلى هذا الواكاتشيلومبو بالإيدز! سيموت لا محالة! حرّي بك

تجهيز قبرك يا سيداً.

في ظهيرة أحد الأيام، وعندما كنّا نلعب الباوو في السوق التجاري، اقترب منّا بعض موظفي عيادة ويمبي، وبدأوا يتحدثون إلينا. قالوا: إنهم بصدد تأسيس نادٍ خاص بالشباب؛

لتشجيع الناس على الخضوع للفحوص. ثم أضافوا قائلين: لماذا لا تنضمون إلينا يا فتية كي نطهر مجتمعنا. إننا في حاجة إلى مساعدتكم؛ لكي ننشر الحقيقة.

أسس نادي شباب ويمبي للخدمات الصحية في ذلك اليوم ليصبح أحد أكثر أنشطتي المفضلة. بدأنا نجتمع كل يوم إثنين لتتعلم عن أساليب الوقاية من فيروس نقص المناعة المكتسبة، وكيفية تناول الموضوع مع الآخرين. كان الصف مليئاً بالصبية أمثالي، وكان كثير منهم قد ترك المدرسة لأسباب مالية. كان جيفري وغيلبرت من الأعضاء أيضاً. وفي واقع الأمر، فقد كنت سعيداً لوجودي في بيئة صافية مجدداً، حيث يمكنني التعلم والاختلاط بالآخرين، فضلاً على إظهار الجميع ذكاءهم، ومشاركتهم الأصدقاء في المزاح. شغلت تلك الدروس أيضاً بالي عن المدرسة، وساعدتني على الاحتفاظ بتركيزي تماماً كما فعلت الطاحونة الهوائية وساحة الخردة. لقد بذلت أقصى جهدي في ذلك النادي.

من جانبهم، أعجب أطباء العيادة بحماسنا، لدرجة أنهم طلبوا إليّ تأليف مسرحية تحفز الناس إلى عمل الفحوص. وقد تمكنت من إعداد نصّ رائع - كان في رأسي أكثر منه على الورق - في الأيام اللاحقة، ووسمته بـ: ماونيكيدوي أبوسيتسا؛ أي: لا تحكم على الكتاب قبل قراءته.

عُرِضت المسرحية في السوق التجاري بعد أسبوعين من الإعداد والتدريب. وكنت قد أخذت أنا وغيلبرت نعلق ملصقات تروّج للعرض، حتى إننا طلبنا من زعيمنا الجديد - ابن عمّ غيلبرت - مخاطبة بعض راقصي الغولي وامكولو لمساعدتنا على جذب الحضور. وفي صباح يوم العرض، تجمّع الممثلون، ثمّ مشوا عبر السوق التجاري صارخين: هيا جميعاً! فلتشاهدوا عرضاً عن فيروس نقص المناعة المكتسبة! شاهدوا حركات الغولي وامكولو البهلوانية!. وما إن جهّزنا أنفسنا وسط السوق حتى تجمّع حولنا زهاء خمس مئة متفرّج . كما أغلقت كثير من المحالّ التجارية أبوابها في أثناء العرض.

تناولت المسرحية قصة زوجين يعيشان في العاصمة ليلونغوي (تتمّص دوريهما صديقاى كريستوفر وميسي). وحدث أن قرّر الزوج إرسال زوجته إلى القرية؛ لزراعة الذرة. وكما تعرفون؛ فالحياة قد تكون شاقة جداً في القرى، حيث يجوع الناس هناك، إضافة إلى

أنَّ العمل فيها مُضِنٌ، والشمس حارَّةٌ جدًّا. خسرت الزوجة كثيراً من وزنها كونها لم تعدد على حياة الزراعة تلك. وحين عادت إلى البيت، غضب الزوج لحالها، ثمَّ سألتها: لماذا أنتِ نحيفةٌ جدًّا هكذا؟

فأجابت: الحياة صعبةٌ جدًّا في القرية.

قال: أنتِ كاذبة. أعتقد أنك كنت تعاشرين رجالاً آخرين وأصبتى بالإيدز.

ما لم تعرفه الزوجة هو أنَّ زوجها كان في غيابها يمضي كلَّ ليلة في حانات المنطقة (47)، وعاشر كثيراً من المومسات.

حاولت الزوجة إقناع زوجها ببراءتها مُنكرة اتهاماته، لكنَّ الزوج لم يُصدِّق روايتها. ثمَّ قال لها: عودي إلى القرية. إذا أردت معاشرة رجال آخرين فاذهبي. اخرجي من بيتي! ولحسن الطالع، يصل صديق في تلك الأثناء، ويرقب شجارهما (هنا يأتي دوري).

قال الصديق: انتظر لحظة يا أخي، ما المشكلة؟

قال الزوج: لقد أرسلت هذه المرأة إلى القرية؛ كي تزرع الذرة، وانظر كم أصبحت نحيلة. إنَّها تعزو ذلك إلى العمل الشاق في الزراعة، وعدم وجود طعام في القرية. لكنَّها - في رأيي - مصابة بالإيدز. لذا، لن أبقى معها بعد الآن!.

قال الصديق: أخي، أنت لا تستطيع الجزم بإصابة شخص ما بالإيدز بمجرد النظر إليه. فقد يكون السبب هو الجوع، أو السل، أو غير ذلك. أمَّا الطريقة الوحيدة لمعرفة السبب فهي الخضوع للفحوص في مركز الاستشارة والفحص التطوعي المحلي.

قال الزوج: حسناً! سنذهب إلى هناك لننهي هذه المسألة.

اعتقد الزوج أنَّ مومسات المنطقة (47) لم يُسبِّبن له الأذى؛ نظراً إلى بنيته الضخمة وصحته الجيدة. ولكن، بعد أن ظهرت نتائج الفحوص والتحليل في المركز، أخبر الطبيب (تقمَّص غيلبرت الدور) الزوج أنه مصاب بفيروس نقص المناعة المكتسبة، وأنَّ زوجته ليست كذلك.

فقال الزوج للطبيب: أنتَ تغشني! هذا غير ممكن!

ردّ الطبيب: يستحيل أن أكذب عليك. ولكن، لا تقلق، فهذه ليست نهاية المطاف. يمكنك مواصلة حياتك بصورة طبيعية إذا اتبعت تعليمات محدّدة.

قالت الزوجة وهي ترتجف: لا يمكن أن أبقى معك. أنتَ محقّ يا زوجي؛ فعليّ الرحيل.

قال الطبيب: لا تكوني جاهلة. يمكنكما البقاء معاً. كلّ ما عليكم فعله هو الحذر، واتباع تدابير وقائية.

تطمئنّ الزوجة، فتحضن زوجها، قائلة: ما زلت أحبك وسأبقى معك حتى يفرّقنا الموت.

في نهاية المسرحية، صاح الحضور، وهتفوا بابتهاج، وألقوا القصاصات الورقية في الهواء. وما إن نزل الممثلون عن خشبة المسرح، حتى ختمت فرقة الغولي وامكولو العرض بطريقة حماسية. لا أجزم أنّ مسرحيتنا البسيطة قد نجحت في إقناع كثير من الناس بجدوى هذه الفحوص، وضرورة عملها في أقرب وقت ممكن، لكنّها نجحت حقاً في تغيير المواقف. فقد أصبح كثير من الأشخاص - في يومنا هذا - يثقّون أنفسهم بشأن المرض، ويحرصون على عمل الفحوص، ولم يعد الإيدز موضوعاً محظوراً بفضل البرامج الحكومية والمراكز الجديدة. حتى إنّ السحرة أصبحوا يرسلون عملاءهم إلى العيادات، ويروّجون العلم والطب على حساب سحرهم.

من جانب آخر، فقد أسهمت شهرتي في حقل الاختراع، ومشاركتي الفاعلة بالنادي، في منحي فرصاً أخرى. فبعد وقت قصير من عرض المسرحية، طلب إليّ أحد المدرّسين في مدرسة ويمبي الابتدائية إنشاء نادٍ للعلوم من أجل الطلاب. وكان هذا المدرّس قد أعجب بطاحونتي الهوائية، فأراد أن أبنى واحدة مثلها في المدرسة.

قال: الطلاب يُعدّونك مثلاً أعلى لهم. ومن شأن مهاراتك العلمية تحديّ تفكيرهم

من دون شكّ.

شعرت بفرح غامر وأنا أسمع هذا الإطراء، فوافقت من فوري.

كانت الطاحونة الهوائية التي بنيتها في المدرسة صغيرة كتلك التي بنيتها أول مرّة باستخدام المذياع، وكانت شفراتها مصنوعة من دلو ذرة معدني، ومحرّك مذياع بوصفه مولّداً. وقد ثبتّها بعمود مصنوع من أشجار اليوكالبتوس، ووصلت الأسلاك بمذياع ذي بطاريتين من نوع باناسونيك كنت قد حضّرتة سلفاً. قمت بذلك صبيحة أحد الأيام في أثناء الاستراحة، بينما كان الأطفال كافة يلعبون كرة القدم في الأجمة. وقد تجمّع حولي حشد منهم في أثناء العمل، وأخذوا يراقبون. وما إن وصلت الأسلاك حتى صدحت الموسيقا في ساحة المدرسة، فصرخوا قائلين: اهدأوا. نريد أن نسمع!.

قال أحدهم: لا تدفعني!.

قال آخر: دعني أشاهد.

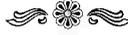
لم تتح الطاحونة الهوائية للطلاب فرصة الاستماع إلى الموسيقا والأخبار فحسب، بل مكّنتهم أيضاً من شحن هواتف ذويهم النقّالة. كنت أحدثهم كلّ يوم إثنين عن أساسيات العلوم، وعن أهمية الاختراعات، وكيف أنّ الحبر – مثلاً – كان يُصنَع من الفحم أول الأمر. كما أجريت تجربة الكوب والخيط المذكورة في كتبي؛ لأساعدهم على فهم طريقة عمل الهاتف.

شرحت لهم أيضاً الخطوات التي اتبعتها لصنع أيّ شيء باستخدام مواد بسيطة من ساحة الخردة، وكنت أمل أنّي حفزتهم إلى الإبداع وصنع أشياء بأنفسهم. قلت لنفسي: إذا كان بمقدوري تعليم جبراني كيفية بناء طاحونة هوائية، فمنّ يدري ما يمكننا بناءه معاً أيضاً؟.

قلت أيضاً: يفتح لنا العلم آفاقاً رحبة من الاختراع والابتكار، بحيث نصنع أشياء جديدة يمكنها تحسين وضعنا. وفي حال استطعنا جميعاً اختراع شيء واستخدامه، فيامكاننا عندئذٍ تغيير ما لوي.

اكتشفت لاحقاً أنّ الطاحونة الهوائية في ساحة المدرسة قد ألهمت بعض الطلاب، لدرجة أنّهم عادوا إلى البيت، وصنعوا ألعاباً على هيئتها بأنفسهم.

بدأت أتخيّل الوضع، لو أنّ تلك المراوح الورقية كلّها أصبحت طواحين هواء حقيقية، ولو أنّ كلّ بيت ومتجر في السوق التجاري احتوى على آلة دوّارة فوق سطحه لإمساك الرياح؛ لكان الوادي كله يشع ليلاً بالأضواء، كأنّه تحت سماء صافية مليئة بالنجوم. وشيئاً فشيئاً، أصبح توليد الكهرباء منارة أمل لشعبي، لا مجرد حلم لرجل مجنون.



obeyikaundi.com